أبو الحسن الندوي

خامس الراشدين
عمر بن عبد العزيز

المختار الإسلامي

دار العلوم للطباعة
هاتف ٣١٧٤٨

ص
٥

سنتان وبضعة أشهر يحقق فيها ما لا تحققه الحكومات والمنظمات فى عقود من السنين ، وتغير اتجاه أمة ومجتمع بأسره . ان هاتين السنتين لترجحان على الأعمار الطويلة ، وهذه الصفحات المعدودة المشرقة لترجح على مكتبة حافلة فى تاريخ الاصلاح والادارة والسياسة .

.. يولد فى البيت الحاكم ، وينشا نشاة الأمراء المترفين ، ويشتهر بالظرف والترف والأناقة فى اللباس والمظهر ، ويكون شامة بين الناس ، وفتى بنى امية الأول . لقد كان عمر بن عبد العزيز اعظم اموى ترفها وتملكا.. تميز بسلامة الفطرة والاعتراف بالحق والتواضع والعفاف .. ولم تكن سيرته ومواهبه مع ذلك تدل على انه سيقوم فى تاريخ الاسلام بهذه المأثرة العظمى التى عز نظيرها فى تاريخ الحكم والاصلاح ، وانه سيكون ذلك العصامى الذى كان يرتقبه الاسلام ويحتاج اليه المسلمون فى هذه الساعة الدقيقة وانه سيعيد الخلافة الراشدة من جديد ويرد التاريخ على اعقابه ..

المختار الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة - ص. ب ١٧٠٧
هاتف ٩٣٦٤٩٦

أبو الحسن النّدوي

خامس الراشدين
عُمر بن عبد العزيز

المختار الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة ـ ص٠ ب ١٧٠٧
هاتف ٩٣٦٤٩٦

الطبعـــة الثانيـــة
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

النزعات الجاهلية فى العهد الأموى :

كانت نهاية الخلافة الراشـــدة واستحكام الدولة الأموية ـ التى كانت بالاختصار دولة عربية أكثر منهـــا اسلامية ـ انتقالا جديدا فى تاريخ الاسلام ، وفرصـــة انتهزتها الجاهلية التى كانت لا تزال بالمرصـــاد ، فعاشت النزعات التى قضى عليها الاســـلام ، وعادت العصبيات القبلية والنخوة الجاهلية التى نعاها النبى صلى الله عليـــه وسلم فى خطبته بقوله : « ان الله قد أذهب عنكم النخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فخر لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى » والتى نفاها الاســـــلام من مراكزه وحواضره ، فلجأت الى بادية العرب ، عادت هذه العصبيات الى نشـــاطها ونفوذها ، وأصبحت هـــذه العصبية الذميمة والنخوة الأثيمة ، والاثرة القبلية والطـــائفية والنسبية التى هى أشـــد خطرا على المصلحة الاجتماعية ، وأشد معارضـــة للروح الاسلامية من الاثرة الفردية ، فضيلة فى هـــذه الحياة

ومفخرة من مفاخر الانسان ، بعد ما كانت رذيلة من رذائل الجاهلية وسبة على الرجل المؤمن وحدث انقلاب خطير فى دوافع العمل – التى هى من أقوى العوامل فى الحياة الفردية والجماعية – فأصبح الرجل فى هذا العهد مدفوعا الى العمل ، مدفوعا الى المكرمات والبطولات والى الجود والمواساة بدافع من السمعة والرياء ، والظهور فى القبائل والمجامع ، والتفوق على الأقران ، بعد ما كان مدفوعا الى ذلك بدافع من الأجر وثواب الآخرة ورضا من الله ، وقصة يرويها أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى تمثل هذا التطور الخطير وهذه الروح الجاهلية التى كانت تخامر رؤساء القبائل وأشراف العرب فى ذلك العهد خير تمثيل ، قال :

« حدث ابن عياش قال : كان حوشب بن يزيد بن الحارث بن رؤيم الشيبانى وعكرمة بن ربعى يتنازعون الشرف ، ويتباريان فى اطعام الطعام ونحر الجزر فى عسكر مصعب ، وكان حوشب يغلب عكرمة لسعة يده ، وقال : وقدم عبد العزيز بن يسار مولى بحتر الفقيه بسفائن دقيق ، فأتاه عكرمة فقال له : الله الله فى ، قد كاد حوشب أن يستعلينى ويغلبنى ، فبعنى هذا الدقيق بتأخير ، ولك فيه مثل ثمنه ربحا ، فقال : خذه ، وأعطاه اياه ، فدفعه الى قومه وفرقه بينهم وأمرهم بعجنه كله ، فعجنوه كله ثم جاء بالعجين كله ، فجمعه بهوة عظيمة وأمر به فغطى بالحشيش ، وجاء

برمكة(١) فقربوها الى فرس حوشب ، حتى طلبها وأفلت ثم ركضوها بين يديه وهو يتبعها ، حتى ألقوها فى ذلك العجين وتبعها الفرس حتى تورطا فى العجين وبقيا فيه جميعا ، وخرج قوم عكرمة يصيحون فى المعسكر يا معشر المسلمين أدركوا فرس حوشب فقد غرق فى خمير عكرمة ، فخرج الناس تعجبا من ذلك أن تكون خميرة يغرق فيها فرس ، فلم يبق فى المعسكر أحد الا ركب ينظر ، وجاؤا الى الفرس وهو غريق فى العجين ما يبين منه الا رأسه وعنقه ، فما أخرج الا بالعمد والحبال وغلب عليه عكرمة وافتضح حوشب(٢) .

وهذه وان كانت قصة فردية ، ولم يكن كل رئيس للقبيلة وكل شريف فى المجتمع الأموى ، يحمل روح عكرمة ويضع هذه التمثيلية الغريبة لاشتهار جوده وتفوقه فى اطعام الناس ، وكان فى هذا المجتمع أجواد مخلصون ، يحرصون على اخفاء مكرماتهم ولكنها لا شك تصور الغاية التى وصل اليها تأثير الجاهلية ونفوذها ، والتفكير الجاهلى فى المجتمع الأموى الاسلامى ، والذى يقارن بين هذه القصة الطريفة وبين ضيافة أبى طلحة الأنصارى – رضى الله عنه – واطفائه للمصباح حتى لا يفطن الضيوف بقلة الطعام ، وامتناع

(١) البرمكة : الفرس تتخذ للنسل .
(٢) الأغانى .

المضيف عن الأكل(١) يستطيع أن يقيس المسافة النفسية والهوة الواسعة التى وقعت بين العهدين ويعرف التطور الذى حدث فى المشاعر والتفكير .

وقد أصبح بيت المال الذى كان ملكا للأمة ، ملكا لفرد واحد خاضعا لشهواته وتصرفاته ، وكان المبدأ الاسلامى المسيطر على هذه الأموال هو ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم فى كلمته الجامعة « تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم »(٢) ، فأصبح المبدأ المسيطر فى هذا العهد « تؤخذ من فقرائهم وترد على أغنيائهم وأمرائهم وشعرائهم » وأحاطت بالخليفة هالة من الشعراء المحترفين والندماء المتزلفين المتملقين ، تنفق عليهم أموال الصدقات بسخاء ، وبينما كان على – الخليفة الراشد – يعاتب أحد عماله على أنه حضر دعوة لقوم « عائلهم مجفو وغنيهم مدعو(٣) » ، وأصبحت دعوة الأغنياء واكرامهم وطرد الفقراء واهانتهم عادة فاشية وسنة متبعة ، وبينما كان الفاسق يقصى ويجفى ، أصبح يكرم ويدنى لشعره أو غنائه فى السياسة أو مصالح الدولة ، فقد حدث المؤرخون ، أن الأخطل كان يدخل على عبد الملك بغير

(١) والقصة بطولها فى كتب الحديث والسيرة ، راجع تفسير قوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » فى تفسير ابن جرير الطبرى وابن كثير .

(٢) حديث شريف ورد فى كتب السنة المعتمدة .

(٣) نهج البلاغة .

اذن ، وعليه جبة خز ، ولحيته تنفض خمرا(١) ومنزلة الحجاج ابن يوسف – على سفكه للدماء وجرأته على الله – عند الأمويين معلومة « وقد شاع الغناء فى العهد الأموى شيوعا عظيما وعظم الشغف به فى حواضر الدولة الاسلامية حتى يزور مغن مثل « حنين » المدينة ويجتمع الناس فى منزل من منازل البلد ، ويزدحمون على السطح ويكثرون ليسمعوه فيسقط الرواق على من تحته ويموت المغنى تحت الهدم(٢) الى غير ذلك من الظواهر التى تدل على تطور المجتمع الاسلامى ونزعاته الجديدة ، وقد أثرت سياسة الدولة وحياة رجال الحكم المترفة ، تأثيرها الطبعى فى ميول الناس ومقاييسهم للسعادة والشرف ، ونشأت فى المسلمين طبقة مترفة تشبه المترفين فى الأمم القديمة فى أخلاقها وسلوكها ورغباتها ، ولا تمتاز عنهم الا ببعض العقائد والعبادات وبالبقية الباقية من الاسلام ، وهى بقية لها قيمة لا تنكر ، وقد دل كل شىء فى هذا المجتمع على انه تدلى تدليا عظيما ، وعلى أن الجاهلية – الثائرة الموتورة – قد نهضت تنتصف من منافسها – الاسلام – وهى حريصة كل الحرص على أن لا تفوتها الفرصة ، وتريد أن تستوفى أربعين سنة – مضت فى ازدهار الاسلام روحيا وخلقيا – فى بضع سنين .

(١) الأغانى ، ص ١٧٨ ج ٧ .

(٢) انظر الأغانى ، ج ٢ ص ١٢٧ .

أعلام الدين وشخصياته البارزة وتأثيرها :

ولكن يجب أن لا ننسى أن الـــدين كان لا يزال لـــه السلطان الروحى والمكانة الأولى فى قلوب الناس حتى فى هذا العصر ، وكان الجمهور من الناس لا يقرون هـــذه المنكرات وهذا الاسفاف ، وكانوا لا يزالون ينظرون الى الخلفاء والأمراء وحاشيتهم ومن سار سيرتهم ، بنظرة فيها الانتقـــاد وفيها الازدراء وفيها السخط ، وكان الشعب لم يسغ بعد هـــذا التطور ، وكان لا يزال – باستثناء المتصلين بالخلفاء اتصالا وثيقا وباستثناء من تغيرت نفسيته – ينظر باجلال الى العلماء والى أصحاب الدين والاستقامة والخلـــق ، ومن آنس فيهم الزهد فى حطام الدنيا والابتعاد عن أصحاب الحكم والسلطان، وعفافا وقناعة وترفعا عن المطـــامع والمناصب ، واشتغالا بالدعوة الى الله ونشر العلم والنصح لله ولرسوله ولعـــامة المسلمين ، وكانوا أعز وأكرم عنده من كثير من أصحاب الجاه والنفوذ والثـــروة ، وحتى من الخلفـــاء والأمراء فى بعض الأحيان ، ويمكن أن يقال : ان نفوذ الخلفـــاء والأمراء كان محصـــورا فى دائرة خاصـــة ، هى الدائرة السياسية ودائرة الطبقة التى تسمى فى هذا العصر « الطبقة الارستقراطية » أما خارج هذه الدائرة وفى ما عدا هذا الوسط ، فكان يسود فيه أهل الصلاح والعلم وأهل الزهد والتقوى ، والصالحون والعلماء من أبناء الصحابة ، والســـادة من أهـــل البيت النبوى ، فاذا اجتمع من يمثل هذه الطبقـــة الصـــالحة من سادات التابعين وأهل العلم والدين ، ومن يمثل الحكـــومة

والامارة والجاه والسلطـــان ، غلب سلطان الدين والسلطان الروحى على سلطان السياسة والحكم .

يمثل ذلك أجمل تمثيل ما وقع لهشام بن عبد الملك يوم كان ولى العهد ، مع سيدنا على بن الحسين المعروف بزين العابدين ، فقد روى المؤرخون « ان هشام بن عبدالملك حج فى أيام أبيه وطاف وجهد أن يصل الى الحجر ليستلمه ، فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر الى الناس ، ومعه جماعة من أعيان أهل الشام ، فبينما هو كذلك اذ أقبل زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وكان من أحسن الناس وجها ، وأطيبهم أرجا ، فطاف بالبيت فلما انتهى الى الحجر تنحى له الناس حتى استلم ، فقال رجل من أهل الشام ، من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة ؟ فقال هشام : لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام فيملكوه ، وكان الفرزدق حاضرا فقال: أنا أعرفه ، فقال الشامى : من هو يا أبا فراس؟ فقال قصيدته السائرة التى مطلعها(١) :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم

وهذه القصة وان كانت بسيطة فى الظاهر ، تدل على ما كان يتمتع به أهل الفضل والدين ورجال الأسرة النبوية

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الخامس ص ١٤٥ ، طبع مكتبة النهضة المصرية .

وسادات التابعين ، من النفوذ والاجلال ، وقد كان لسيدنا حسن المثنى بن حسن بن على ابن أبى طالب وابنه عبد الله المحض ، وسالم بن عبد الله بن عمر وقاسم بن محمد بن أبى بكر رضى الله عنه وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، مكانة مرموقة ومنزلة عالية فى قلوب الناس ، وتأثير كبير لما يقولونه(١) وكان لهذه المكانة ولهذا النفوذ الروحى ولهذا الاجلال والحب العميق الذى يدين به الشعب لهم سلطان يحفظ على الشعب جلال الدين ومهابته ، ويمنعه من الاندفاع المتهور الى الترف الفاحش والحياة الجاهلية السافرة ، والجهر بالمعاصى والمنكرات ، ويمنع من أن يكون الخليفة المستهتر أو الأمير السكير أو الغنى المعربد أو الشاعر الماجن « المثل الكامل » للمجتمع ، ويحدث وجود هؤلاء الاعلام صراعا نفسيا على الأقل ، ويحدث – اذا فرطت من أحد معصية أو زل زلة أو اتصل بالخلفاء والأمراء – تأنيبا داخليا ووخزا للضمير وتألما نفسيا ، وهذا الصراع وهذا التأنيب لهما قيمة لايستهان بها ، ولهما تأثير لا يقلل من أهميته ويمكن أن يعرف غناؤهما فى مجتمع لا يملك الا طرازا واحدا من البشر ، وهو الطراز الرسمى أو المادى ، وفقد العنصر الذى يختلف عنه كل الاختلاف ، واكتسحت موجة المادية هذا المجتمع – كما نرى فى أوروبا – فلا صراع ولا تأنيب ولا جزيرة فى هذا البحر المادى المائج ، ولا منار للنور فى هذه الظلمات ، ولا أسوة

(١) انظر تراجمهم فى وفيات الأعيان وصفة الصفوة .

يأتسى بها الانسان ، وللأسوة والمثال العملى ، سحر فى النفوس لا يجهله علماء النفس والأخلاق .

الحاجة الى تغيير الحكومة والصعوبات فى سبيله :

وظلت الحكومة – الأموية – تؤثر فى الميول والنزعات وفى مقاييس الحياة ، وتفعل فعلها الطبيعى فى المجتمع والحضارة ، والاخلاق والاجتماع ، وظلت الشخصيات الدينية تفقد نفوذها على مر الأيام وينتقص عددها ، وتضيق دائرة نفوذها ، فلا مطمع اذا فى ثورة دينية وخلقية وتحسين كبير فى أحوال المسلمين وأوضاعهم ، الا بحدوث انقلاب صالح فى الحكومة ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ وقد قامت الحكومة الأموية على أسس عسكرية متينة لا تتزعزع ولا تضطرب ، وكانت جديدة فتية لا تزال بعيدة عن الضعف والهرم ، ولم تكن فى داخل المملكة وخارجها قوة حربية تهزمها فى الميدان ، وقد أخفقت المحاولات والجهود التى قام بها المخلصون والأكفاء ، مثل الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وعبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، لقلبها والتخلص منها واقامة حكومة اسلامية راشدة من جديد ، وقد قطع نظام الوراثة الذى سار عليه الأمويون ومبدأ الحكومة الشخصية التى كانت الحكومة تدين به ، كل أمل فى الاصلاح والتغيير ، وأصبح الجالسون على عرش الحكومة والمتملكون لزمامها ، سلسلة من حلقات متشابهة آخذ بعضها برقاب بعض ، فكان

كل شيء يدل على أن الحكومة ستستمر على هذه الحال ، وأن المسلمين قد كتب لهم أن يعيشوا في مثل هذه الأوضاع ، وكان الاسلام في عودته الى مركزه في الحياة يحتاج الى « معجزة » فقد عجزت الأمور والحوادث العادية عن اعادته الى مكانه ، وعن اصلاح الاوضاع الفاسدة ، وعن قلب التيار القوي الجارف ، وانما كان يحتاج الى حادثة خارقة للمادة تقع خلاف القياس ، وتقع على غفلة من الناس ، وعلى غير ترقب منهم ، فتغير مجرى الأمور ، وتبهر العقول والعيون .

استخلاف عمر بن عبد العزيز :

كان عمر بن عبد العزيز هذه « المعجزة » الباهرة ، وكان كل شيء في حياته يدل على انه معجزة من المعجزات التي خبأها الله لنصرة الاسلام ، يولد في البيت الحاكم ، وينشأ نشأة الأمراء المترفين ، ويشتهر بالظرف والترف والاناقة في اللباس والمظهر ، ويكون شامة بين الناس ، وفتى بني أمية الذي يحرص على تقليده الظرفاء والمتنعمون ، يتحدث عنه الليث بن سعد فيقول : « كان عمر بن عبد العزيز أعظم أموي ترفها وتملكا » غذي بالملك ونشأ فيه ، لا يعرف الا وهو تعصف ريحه فتوجد رائحته في المكان الذي يمر فيه ، ويمشي مشية تسمى العمرية ، فكان الجواري يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها ، وكان يسبل ازاره حتى ربما

دخلت نعله فيها فيتحامل عليه فيشقه ولا يخلعها ويسقط أحد شقي ردائه عن منكبه فلا يرفعه ، وتنقطع نعله فلا يعرج عليها وربما لحقه بها المملوك فيعتقه ، ويضع بخاتمه فتتسخ الطينة من العنبر(١) وكان أمير المدينة في عهد ابن عمه وليد ، وكان أثيرا في عهد ابن عمه سليمان ، وكان لا يمتاز عن بني أعمامه وأخوته وأترابه الا بسلامة الفطرة والاعتراف بالحق والتواضع والعفاف « فلم يغمص في ولايته على ترفهه — في بطن ولا فرج ولا حكم(٢) وكان لا يمتاز عنهم الا بدم زكي فيه نصيب للفاروق العادل ، جاءه عن طريق أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وجدته — لأمه — صاحبة القصة المعروفة في اللبن(٣) ولم تكن سيرته ومواهبه مع ذلك تدل على انه سيقوم في تاريخ الاسلام بهذه المأثرة العظمى التي عز نظيرها في تاريخ الحكم والاصلاح ، وانه سيكون ذلك العصامي الذي كان يرتقبه الاسلام ويحتاج اليه المسلمون في هذه الساعة الدقيقة وانه سيعيد الخلافة الراشدة من جديد ويرد التاريخ على أعقابه .

وكان استخلافه لا يقل عن معجزة ، فلو جرت الأمور مجراها الطبيعي لم يكن له نصيب في غير الامارة وولاية بعض

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن الحكم ص ٢١ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن الحكم ص ٢٠ .
(٣) اقرأ القصة في ص ١٧ و ١٨ من سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم .

الاقطاع ، ومن أين تقفز اليه الخلافة وتتخطى أولاد سليمان وهو صاحب الأمر ، ولكن لله فى خلقـه شؤونا ، فقد كان لسليمان بن عبد الملك ابن يقال له أيوب بن سليمان ، عقدت له خلافة ولاية العهد من بعده ، وتوفى أيوب قبل سليمان ، ولم يبق لسليمان الا ولد صغير ، فلما حضرته الوفاة أراد أن يستخلف ، فحضره عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة ، فقال لرجاء : اعرض على ولدى فى القمص والاردية ، فعرضهم عليه فاذا هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القمص والأردية يسحبونها سحبا ، ثم قال يا رجاء : أعـرض على بنى فى السيوف ، فقلدوهم السيوف ، ثم عرضهم عليـه فاذا هم صغار لا يحملونها يجرونها جرا . فلما لم ير فى ولده ما يريد حدث نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز لما كان يعرف من حاله ، فشاور رجاءا فيمن يعقد له ، فأشار اليه رجـاء بعمر وسدد له رأيه . فوافق ذلك سليمان وقال : لأعقدن عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب(١) وهكذا جاءت الخـلافة الى عمر بن عبد العزيز وهو غافل عنها زاهد فيها ، وكان لرجاء مأثرة لا ينساها الاسلام ، ولا أعرف رجلا من ندمـاء الملوك ورجالهم انتفع بقربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه ، وانتهز الفرصة مثل انتهازه ، وأسدى للاسلام خدمة مثله .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم : ص ٢٩ ـ ٣٠ .

حياته بعد الخلافة :

كان من أول ما بدأ به عمر فى خلافته هو عزله لبعض الولاة الجائرين، ورفضه لمظاهر الأبهة والفخفخة التى جرى عليها الخلفاء الأمويون عند استخلافهم ، ورد كل ما عرض عليه فى ذلك الوقت من مراكب وسرادقات جديدة الى بيت المـال وتغيرت سيرته فى تلك الساعة ، فكأنه لا يتصـل بآبائه بصلة ، ولا يعرف غير عمر أسوة له . رد الجوارى الى أهلهن وبلادهن ، ورد المظالم ، ورد المجالس التى أشبهت مجالس الأباطرة وتمسكت بسنن كسرى وقيصر الى بساطتها الأولى ووضعها الاسلامى ، فنهى عن القيام له ، وابتدأ بالسلام ، وأباح دخول المسلمين عليه بغـير اذن ، وخرج من ماله وعقاره ، ورده الى مال المسلمين ، ووضع حلى زوجته فى بيت المال ، وبلغ من الزهد والشظف فى الحيـاة والتقشف فى المعيشة مبلغا يعجز عنه الزهاد فضلا عن الملوك والأمراء ، فقد كان يتأخر فى بعض الأحيان عن الخروج لصلاة الجمعة انتظارا لقميصـه أن يجف ، وقد يكون طعام بنـاته عدسا وبصلا فيبكى ويقول : يا بناتى ما ينفعكن أن تعشين الألوان ويمر بأبيكن الى النار ؟ ويشتهى الحج فيقول لمـولاه : انى قد اشتهيت الحج فهل عندك شىء ؟ قال بضعة عشر دينارا ! قال : وما تقع منى ؟ ويمكث قليلا فيقول له مولاه : يا أمير المؤمنين : تجهز فقد جاءنا مال سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بنى مروان ، فيقول : اجعلها فى بيت المال ، فان تكن حلالا فقد أخذنا منها ما يكفينا ، وان تكن حراما فكفانا

ما أصبنا منها ، وكانت نفقته اليومية لا تزيد على درهمين ، حين كان يفرض للعمال ثلاث مائة دينار لكل واحد ليغنيهم عن الخيانة وكان يتورع عن تسخين الماء على مطبخ العامة ، ويتورع عن شم مسك الفيء ، وكان يطفيء الشمعة التى زيتها من بيت المال اذا شغله أحد بالسؤال عن شخصه ، كراهة لانفاق مال المسلمين فى غير حاجاتهم .

ولم يكن تورعه وضنه على مال المسلمين نزعة غريبة فى الزهد ، نقرأ أمثلتها فى كتب التاريخ والتراجم ، فى مثل حلية الأولياء لأبى نعيم ، ولم يكن فيه شيء من الغلو والاسراف أو الزهد الاعجمى ، فقد كان بعيدا عن كل ذلك ، انما هى الطبيعة الدينية ونتيجة الايمان القوى ، والشعور بالمسؤولية ، ومعرفة قيمة الحياة واستحضار الآخرة ، ونتيجة « الحب » الذى اذا ملك القلب واستولى على الشعور ذابت الرغبات وتغيرت القيم والأقدار ولولا هذه المؤاخذة الشديدة للنفس ، ولولا هذا الحذر الشديد من ملاذ الحياة والتمتع بالمباحات ، لما استطاع مثل عمر بن عبد العزيز — وهو أكبر ملوك الارض فى عصره — وهو فى دمشق — عاصمة العالم المتمدن يومئذ — أن يحفظ نفسه من الاندفاع الى الترف ، ويضرب مثلا عاليا لأمرائه وعمال مملكته فى الورع والزهادة والتحرز من الشبهات ، وما استطاع أن يخفف غلواء المدينة المترفة ويحد من شدتها .

ولم يكن تورعه مقتصرا على ذاته ، كما يفعله كثير من الزهاد — بل كانت سياسة عامة كان يريد أن يطبقها تطبيقا دقيقا على الدولة ورجالها — فكان يطلب منهم ويعزم عليهم أن يكونوا متورعين فى أموال المسلمين ، لا ينفقون منها الا القدر اللازم وأن يكونوا أشحة على أنفسهم أسخياء على المسلمين — بخلاف ما تجرى عليه الحكومات هذا اليوم — وكان حريصا على أن يوفر على المسلمين أموالهم ، ويعتقد أن الدرهم دم فلا يجوز أن يجرى فى غير عروقهم ، ولا يرى أن يضيع فى « الكماليات » و « الشكليات » ، كتب الى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، — وكان والى المدينة « أما بعد ، فقد قرأت كتابك الى سليمان تذكر فيه انه كان يقطع لمن كان قبلك من أمراء المدينة من الشمع كذا وكذا يستضيئون به فى مخرجهم، فابتليت بجوابك فيه ، ولعمرى لقد عاهدتك يا ابن أم حزم وأنت تخرج من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة من غير مصباح ، ولعمرى أنت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان فى فتائل أهلك ما يغنيك والسلام(١) » وكتب اليه أيضا وقد طلب من الخليفة قراطيس يكتب عليها فى مصالح ولايته « أما بعد ، فقد قرأت كتابك الى سليمان تذكر أنه قد كان يجرى على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا ، فابتليت بجوابك فيه . فاذا جاءك كتابى هذا فارق القلم واجمع الخط واجمع الحوائج الكثيرة فى

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ٦٣ — ٦٤

الصحيفة الواحدة فانه لا حاجة للمسلمين فى فضل قول أضر بيت مالهم والسلام عليك(١) » .

وهذا شأن من يعتبر المسلمين طفلا عزيزا فى حضانته، ويعتبر مالهم أمانة عنده لا ينفق منه الا عن ثقة ويقين ، وهذا مثل الحكم العاقل العامل الدقيق ، الذى سماه التاريخ وسماه المسلمون بحق « بالخلافة الراشدة » .

اصلاحاته الواسعة فى نظام الحكم :

ان عظمة عمر بن عبد العزيز وعبقريته ليست محصورة فى ورعه وزهادته — وهو عظيم فى ذلك حقا ، ويستحق أن يسمى عبقريا اذا عرفنا ما كان يحف الملـــوك من الاغراءات وفرص المتعة ، وما كان يملكه من الحرية المطلقـة ، وليست عظمته محصورة فى ما كان يؤاخذ به عمـــاله وأمراؤه من التورع . ان أعظم ما يمتاز به هو انه نظر الى الحكومة نظرة لم ينظرها الا الرسول وخلفاؤه الراشـــدون ، فقد كانت الحكومة فى عهده مقصورة على جبـــاية الأموال وانفاقها فى مصالح الدولة ، لا صلة لها بأخلاق الجمهور وعقائده وأخلاق الناس ، ولا شأن لها بالضلالة والهداية وكان الذين يخلفون الرسول الذى أرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا وهاديا باذنه

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ٦٤

وسراجا منيرا ، كان الذين يخلفون هذا الرسول ، عصابة من جباة الأموال يقيسون كل قضية فى هذه الدولة — التى كانوا يسمونها الخلافة — بالمقياس المالى ، ولا ينظرون الى شىء الا بالناحية المالية .

ظهر عمر بن عبد العزيز فى هذه الأسرة الحاكمة ، فثار على هذه النظرة وعلى هذه النفسية ، وقال عن الحكومة كلمته المأثورة التى سجلها التاريخ ، ولا أعرف كلمة فى التاريخ تبين روح الخلافة الراشدة وما تمتاز به عن الحكومات الزمنية أبلغ من هـذه الكلمة ، لقد شكا اليه بعض العمال ان أهـل الذمة بدأوا يقبلون على الاسلام فى عدد كبير وقد فشا فيهم الاسلام ، وأصبحت هذه قضية تشغل عقول « الاداريين » ذلك لأن الجزية التى يفرضها الاسلام على أهل الذمة — ولو كان بمقدار طفيف ، يتضـاءل بجـــانب ما يتمتعون به من حقوق ، وما يعفون عنه من خدمات — من أعظم موارد بيت المال ، فاذا أسلم هـؤلاء سقطت عنهم الجزية وخسرت مالية الدولة الاسلامية خسارة باهظة ، بلغت هذه الشكوى عاهل الدولة الاسلامية ، فأجاب عنها فى هدوء وثقة وكتب اليـــه « ان الله جل ثناؤه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا الى الاسلام ولم يبعثه جابيا(١) » .

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧٥ .

وعلى هذا الأساس وعلى هذه النظرة ، قامت دولته ، وهو أساس « الهداية » التى بعث لها النبى صلى الله عليه وسلم ، وبهذه النظرة كان ينظر الى قضايا الحكومة ومصالحها وهى نظرة « المرشد » ونظرة « الداعى » ونظرة خليفة الرسول الهادى ، وذلك مفتاح شخصية عمر بن عبد العزيز الذى نستطيع أن ندخل به الى رحاب هذه الشخصية الفذة فى الأسلام ، الفذة فى الامم ٠

وقد طبق هذا المبدأ على حكومته الواسعة تطبيقا دقيقا ، فاذا تعارضت المصلحة المالية مع مصلحة من مصالح الشريعة ، رجح المصلحة الشرعية والحكم الشرعى على المصلحة المالية ولم يتردد ، يدل دلالة واضحة على ذلك ، وعلى ايمانه بهذا المبدأ ، كتابه الذى كتبه الى عامله على اليمن عروة بن محمد يقول فيه : « أما بعد فانك كتبت الى تذكر انك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ، ثابتة فى أعناقهم كالجزية ، يؤدونها على كل حال ، ان أخصبوا أو أجدبوا ، وحيوا أو ماتوا ، فسبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين ، اذا أتاك كتابى هذا ، فدع ما تنكر من الباطل الى ما تعرفه من الحق ، ثم ائتنف الحق فاعمل به بالغا بى وبك ، وان أحاط بمهج أنفسنا وان لم ترفع الى من جميع اليمن الا حفنة من كتم ، فقد علم الله أنى بها مسرورا اذا كانت موافقة للحق والسلام(١) » ٠

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٦

وكذلك رفع المكس — وهو مورد عظيم من موارد الحكومة — قال رحمه الله « وأما المكس فانه البخس الذى نهى الله عنه فقال « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » غير انهم كنوه باسم آخر(٢) ٠

وحط العشور والضرائب التى فرضتها الحكومة ، وقال: « فأما المسلمون فانما عليهم صدقات أموالهم ، اذا أدوها فى بيت المال كتبت لهم بها البراءة ، فليس عليهم فى عامهم ذلك فى أموالهم تباعة(٣) » ٠

وفتح طريق البر والبحر للتجارة الحرة ، ومنع الضرائب والمكوس « أما البحر فانا نرى سبيله سبيل البر قال : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله » فأذن فيه أن يتجر فيه من شاء ، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس وبينه ، فان البر والبحر لله جميعا سخرهما لعباده ، يبتغون فيهما من فضله ، فكيف نحول بين عباد الله وبين معائشهم(٤) » ٠

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٩ ٠
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٨ ٠
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٩ ٠

وقد أخذت فى مملكته الواسعة اصلاحات واسعة الأثر ، فأمر بأن يكون تمام مكيال الارض وميزانها واحدا فى جميع الأرض كلها(١) وحرم على العمال وموظفى الدولة أن يتجروا ، فكتب « ونرى أن لا يتجر امام ، ولا يحل لعامل تجارة فى سلطانه الذى هو عليه ، فان الأمير متى يتجر ليستأثر ويصيب أمورا فيها عنت وان حرص على ألا يفعل(٢) » وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب فى مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة ، ما يصدق فراسة عمر بن عبد العزيز الصادقة ، وحكمته البالغة ، قال : « ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية(٣) والبلاد التى يحكمها الأوربيون ـ وهم تجار قبل كل شىء ـ شاهدة بصدق هذه النظرة » .

وحرم السخرة بأنواعها ـ وهى التى درجت عليها الحكومات . وكان من آثارها الأهرام فى مصر ومبانى رومة العظيمة ـ فقال « ونرى أن توضع السخر عن أهل الأرض ، فان غايتها أمور يدخل فيها الظلم(٤) » .

وكان الأمراء ورجال الأسرة الحاكمة قد استحوذوا على قطع واسعة من الارض واتخذوها حمى ، وحرم منها الشعب ،

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٩ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٩ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٧ .
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٠٠ .

فقال : « ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة .. وانما الامام فيها كرجل من المسلمين ، انما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء(١) » .

وفطن لأمور دقيقة لا تسترعى اهتمام الخليفة ، وعرف منافذ السوء والخيانة فسدها ، منها الهدايا التى كانت تهدى الى العمال ، وكانوا يقبلونها لأن قبول الهدايا سنة ، وقد عرف عمر بن عبد العزيز تغير الأوضاع وتغير البيئات ، فحرمها وقال فى هدية أهديت اليه ، وقال القائل قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية « هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية وهو لنا رشوة ولا حاجة لى به(٢) » .

وقد أصبح الخليفة محجوبا عن الناس لا سبيل لهم اليه ولا سبيل له الى معرفة أحوالهم وما يجرى فى مملكته ، وقد بنى الحاشية حوله سياجا من حديد لا ينفذ منه اليه الا ما يشتهون وما تسمح به مصالحهم ، أما عمر بن عبد العزيز ، فقد أعلن بالجوائز والمكافأة المالية لمن يخبره بحقيقة الحال ، أو يشير عليه بشىء فيه مصلحة للمسلمين ومصلحة لدولتهم ، وكتب الى أهل المواسم :

« أما بعد ، فأيما رجل قدم الينا فى رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصا أو عاما من أمر الدين ، فله ما بين مائة

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٧ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٣ .

دينار الى ثلاثمائة دينار ، بقدر ما يرى الحسبة وبعد سفر ، لعل الله يحيى به حقا أو يميت باطلا أو يفتح به من ورائه خيرا(١) » .

عنايته بأخلاق الجمهور وأعماله :

لقد كان الخليفة الى عهد عمر بن عبد العزيز كما قدمنا رأس دولة ، هى منظمة لجباية الأموال وحراسة النفـــوس والأرواح لا غير ، لا شأن له بما يعمله الناس فى بيوتهم وما يتخلقون به من أخلاق — ما دامت هذه الأعمال والأخلاق لا تتدخل فى شؤون الدولة — ولا شأن له بنزعاتهم وأفكـارهم وعقائدهم وبسعادتهم الاخروية وبرقيهم الروحى والخلقى ، ولكن عمر بن عبد العزيز أول من عنى بهذه الناحية ، التى هى من مقاصد البعثة ، وواجبات الخلافة — بعد الفترة الطويلة التى جاءت بعد الخلافة الراشدة — وقد انقسمت الواجبات من مدة طويلة بين طائفتين ، فاستقلت الخلافة بالأعمال الادارية والمالية ، و تفرد العلماء بالحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة والارشاد ، مع أن الخلافة بطبيعتها تجمع بين الناحيتين ، ولذلك سميت « الخلافة الراشدة » .

جاء عمر بن عبد العزيز فحارب هذه « الثنوية » وهذا الانقسام ، وجمع بين الادارة والارشاد ، والسياسة والدعوة ،

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤١ .

وأثبت أنه خليفة حقا ، فلم يتقلد الخلافة حتى وجه الى عمال حكومته وأمراء الاجناد رسائل طويلة تتجلى فيها روح الدعوة والارشاد ، وهى تمثل نفسية الداعى والمرشد والعالم ، أكثر مما تمثل نفسية الحاكم والأمير ، وقد كتبت فى أسلوب الدعوة الى الله والتحذير على سخطه وعقابه وفى أسلوب الترغيب والترهيب .

ومن هذه الرسائل رسالة يصف فيها ما كان المسلمون عليه وما صاروا اليه ، ويبين سياسته لهم ، وفيها وصف مسهب وتصوير صادق للجاهلية ، وذكر للبعثة المحمدية ، وحث على قدر هذه النعمة العظمى والقيام بشكرها ،والتمسك بالدين الذى جاء(١) ، ورسائل الى أمراء الأجناد يعزم عليهم فيها بالمحافظة على الصلوات فى وقتها والعناية بالمدارسة ونشر العلم(٢) ورسالة الى عماله يحثهم فيها على اتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه(٣) ، ورسالة يحثهم فيها على دعوة أهل الذمة الى الاسلام ، وأنه غاية بعثة الرسل وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم(٤) ، ورسالة يشدد فيها عـــلى العمال بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويذكر ما يحدث الاخلال بهذه الفريضة من نتائج وخيمة وعقوبات من السماء،

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٨ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٩ .
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٤ .
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٣ .

ويقول فيها « انه قد بلغنى انه قد كثر الفجور فيكم ، وأمن الفساق فى مدائنكم ، وجاهروا من المحارم بأمر لا يحب الله من فعله ، ولا يرضى المداهنة عليه ، كان لا يظهر مثلـه فى علانيته قوم يرجون لله وقارا ويخـافون منه غيرا ، وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور ، وليس بذلك مضى أمر سلفكم ، ولا بذلك تمت نعمة الله عليهم الخ(١) » .

ومنها رسالة يوصى فيها عماله بالاحتياط فى تنفيـذ العقوبات ، ويشرح نظام التعزير الاسلامى(٢) .

وفى رسالة ينهى عن النياحة واتباع النساء للجنائز والتقاليد الجاهلية التى فشت فى عهده ، ويأمر بالحجـاب ويقول « وتقدم الى صاحب شرطكم فلا يقرن نوحا فى دار ولا طريق ، فان الله قد أمر المؤمنين عند مصائبهم بخير الأمرين فى الدنيا والآخرة فقال : « الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون(٣) » وقد توسع الناس فى أمر النبيذ وتوصلوا منه الى المسكرات ، ونشأت من ذلك شرور وآفات لم تزل تابعة للخمر ، وقد كتب فى ذلك رسالة خاصة يقول فيها « ولعمرى ان ما قرب الى الخمر فى مطعم أو مشرب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ١٦٨ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٨٠ .
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٠٨

أو غير ذلك يتقى » ويشرح نكتة تدل على بعد نظره واطلاعه الواسع ، يقول : « وما يشرب أولئك شرابهم الا من تحت أيدى الذين يهون عليهم زيغ المسلمين فى دينهم ودخـولهم فى ما لا يحل لهم ، مع الذى يجمع نفاق سلعهم ، ويسارة المؤونة عليهم » ثم يقول فى أسلوب المربى الحكيم : « ان الله قد جعل عن الخمور والمسكرات غنى فى المشروبات الجائزة السائغة ، فما يحمل المسلمين على هذا الاثم ؟ وما لأحد من المسلمين عذر أن يشرب ما أشبه ما لا خير من الشراب ؟ فان الله جعل عنه غنى وسعة ، من الماء الفرات ، ومن الاشربة التى ليس فى الانفس منها حاجة من العسل واللبن والسويق والنبيذ من الزبيب والتمر(١) » .

وفى هذه الرسائل يتجلى عمر الخليفة الراشد بايمانه وحماسته وحكمته ، وكأننا — ونحن نقرأ هذه الرسائل — نقرأ رسائل عمر بن الخطاب الى عماله ، ونسـمع الداعى الحكيم ، والادارى المربى ، والوالد العطوف ، ينصح أولاده فى رفق وقوة ، وفى صرامة وحكمة ، ويجمـع بين الادارة والتذكير ، وبين الانذار والتبشـير ، وذلك شـأن الحكم الاسلامى الصحيح وتفسير قوله تعالى « الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٠٢ .

عنايته بالدعوة الى الاسلام :

ولم يقتصر عمر بن عبد العزيز على اصلاح المسلمين وتطبيق الشريعة الاسلامية على المملكة الاسلامية ، بل عنى بالدعوة الى الاسلام فى غير المسلمين ، وكان لها تأثير كبير لاخلاصه وصدقه وحسن تمثيله للاسلام بحياته وأخلاقه .

قال البلاذرى فى فتوح البلدان : « وكتب عمر بن عبد العزيز الى ملوك الهند يدعوهم الى الاسلام والطاعة على أن يملكهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب(١) » .

ولما ولى اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم ، بلاد المغرب ، سار أحسن سيرة ودعا البربر الى الاسلام ، وكتب اليهم عمر بن عبد العزيز كتابا يدعوهم الى الاسلام ، فقرأه اسماعيل عليهم فى النواى فغلب الاسلام على المغرب .

ولما استخلف كتب الى ملوك ما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام فأسلم بعضهم ورفع الخراج عمن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم وابتنى خانات(٢) .

(١) فتوح البلدان .

(٢) الاسلام والحضارة العربية لكرد على ج ٢ ص ١٨٩ .

تدوين العلوم الاسلامية واحياء السنن النبوية :

ولم يقتصر تجديد عمر بن عبد العزيز على اصلاح نظام الحكم ، وتحويل السياسة المدنية الى الخلافة النبوية ، بل تعداه الى نواح كان لها أبعد الأثر وأعمقه فى حياة المسلمين ، ولا يزال المسلمون فى أنحاء العالم مدينين لها فى حياتهم الدينية ، فقد أقبل الى تدوين العلوم الاسلامية التى هى من منابع الحياة فى المسلمين ، وقد تعرضت للضياع ، لانصراف الناس الى السياسة والادارة والحروب ، وأول ما عنى به عمر بعد ما تقلد الخلافة ، هو علم الحديث ، وقد أراد الله أن يكون له فضيلة السبق فى هذا الميدان ، كما كان لجده العظيم ـ عمر بن الخطاب ـ فضيلة السبق لجمع القرآن ، فانه هو الذى أشار وألح على خليفة الرسول أبى بكر الصديق بجمعه .

وقد كتب الى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم فى عصره ، أبى بكر بن محمد بن حزم «أنظر ماكان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء » ، وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميع عمرة ابنة عبد الرحمن الانصارية ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر ، لأهميتهما ، ولم يكتف ـ رحمه الله ـ بأبى بكر بن حزم ، بل كتب الى عماله بالأقاليم « أنظروا الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه(١) » .

(١) تاريخ أصبهان لأبى نعيم .

ولم يكتف بالحث على ذلك ، بل سعى فى تيسير هذه المهمة فأجرى الرزق على العلماء ورتب لهم رواتب ليتوفروا على نشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب ، قال محمد بن الحكم: « وبعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبى مالك والحارث بن محمد الى البادية أن يعلما الناس السنة ، وأجرى عليهم الرزق ، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث ، وقال : « ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرا ، فذكر لذلك لعمر بن عبد العزيز فقال : ما نعلم بما صنع يزيد بأسا وأكثر الله فينا مثل الحارث(١) » .

وكان عمر من العلماء الراسخين الربانيين ، ولولا الخلافة وتكاليفها لكان من العلماء المعدودين ، ومن الفقهاء المشهورين .

قال الذهبى فى تذكرة الحفاظ : « كان يقرن بالزهرى فى علمه(٢) » ، وقال مجاهد « أتينا لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه(٣) » ، وقد حدث عنه الزهرى وأبو بكر بن حزم وأبو سلمة ابن عبد الرحمن ، وله مسند مطبوع ، وكان حريصا على نشر العلم الصحيح والسنن النبوية ، الا أن الخلافة وأعباءها لم تمهله ، وقد كتب فى أوائل خلافته الى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٧
(٢) تذكرة الحفاظ : ص ١٠٦ .
(٣) أيضا : ص ١٠٦ .

عدى بن عدى : « ان للايمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا، فمن استكملها استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ، فان أعش فسأبينها لكم حتى تعلموا بها ، وان أمت فما أنا على صحبتكم بحريص(١) » .

نماذج من رسائله تدل على فكرته ونفسيته :

ولا أدل على فكرته الاسلامية الأصيلة وروحه الايمانية القوية من رسائله وكتبه التى وجهها الى عماله وأمراء أجناده، وهى رسائل لا يجد فيها المدقق مأخذا جاهليا وظلا من ظلال البيئة التى نشأ فيها ، يشعر فيها القارىء كأنه خلق فى الخلافة خلقا جديدا ، وكأن الروح الاسلامية تتكلم على لسانه وتفيض من قلمه .

منها رسالته التى كتبها الى عامله الضحاك بن عبد الرحمن ، وقد بلغه أن بعض أهل البادية وممن تقلدوا الامارة حديثا يتحاربون الى بعض القبائل العربية — شأنهم فى الجاهلية — ويزعمون أنهم ولاية على من سواهم ، ولما كان فى ذلك احياء للنعرة الجاهلية والحمية الجاهلية ، وخروج على الوحدة الدينية والاخوة الاسلامية التى أبدلها الله بها العرب،

(١) الجامع الصحيح للبخارى : كتاب الايمان ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : بنى الاسلام على خمس .

شق ذلك على عمر بن عبد العزيز وأهمه ، ولو كان من سبقه من الخلفاء من أسرته تشاغل عنه أو استغله لمصالح دولته ، ولكن عمر لم يسعه السكوت عليه ، وكتب هذه الرسـالة البليغة :

« أما بعد فان الله جعل الاسـلام الذى رضى به لنفسه ومن كرم عليه من خلقه ، لا يقبل الله دينا غيره كرمه بما أنزل من كتابه الذى فرق بين الاسلام وبين ما سواه ، فقال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبـع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » ، وقال : « وبالحق أنزلنـاه وبالحق نزل ، وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا » . فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حين بعثه ، وأنزل عليه الكتاب حين أنزله ، وأنتم معشر العرب فيما قد علمتم من الضـلالة والجهالة والجهد وضنك العيش وتفرق الدار ، والفتن بينكم عامة ، والناس لكم حاقدون مستأثرون عليكم بالدين ، وليس من ضلالتهم من شئ الا وأنتم على مثله ، من عاش منكم عاش فيما ذكرت من الجهل والضلالة ، ومن مات منكم الى النار ، حتى أخذ الله بنواصيكم عما كنتم فيه من عبـادة الأوثان والتقاطع والتدابر وسوء ذات البين ، فأنكر منكركم ، وكذب مكذبكم ، ونبى الله عليه السلام يدعو الى كتـاب الله والى الاسلام ، ثم أسلم معه قليل مستضعفون فى الارض ، يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم وأيدهم بنصره ، ورزقهم الله من أذن له بالاسلام والدنيا مقبوضة عنه ، والله منجز لرسـوله

موعوده الذى ليس له خلف ، فيراه من يراه بعيدا الا قليلا من المؤمنين فقال : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »(١) . وقال فى بعض ما يعده المسلمين ان قال : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » (٢) . فأنجز الله نبيه عليه السلام وأهل الاسلام موعودهم الذى وعدهم ، فلم يعطكم يا أهل الاسلام ما أعطاكم من ذلك الا بهذا الذى تفلجون(٣) به على خصمكم ، وبه تقومون شهداء يوم القيامة ، ليس لكم نجاة غيره ، ولا حجة ولا حرز ولا منعة فى الدنيـا والآخرة ، فاذا أعطاكم الله منه أحسن يوم وعدتموه فارجوا ثواب الله فيما بعد الموت فان الله قال : « تلك الدار الآخرة ، نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »(٤) . وانى أحـذركم هـذا القرآن وتباعته ، فان تباعته وشروطه قد أصابكم منها أيتها الأمة وقائع من هراقة دماء ، وخراب ديار وتفرق جماعات ، فانظروا ما زجركم الله عنه فى كتابه فازدجروا عنه ، فان أحق ما خيف وعيد الله بقول أو بعمل أو غير ذلك ، فان كان بقول فى أمر الله فنعما

(١) سورة التوبة الآية ٣٤ والصف الآية ٩ .
(٢) سورة النور الآية ٥٥ .
(٣) فى مخطوطة ب « تفلحون » ولعل ما هنا أصوب .
(٤) سورة القصص الآية ٨٣ .

له ، وان كان يقول فى غير ذلك فانما يفضى الى سبيل هلكة ، ثم ان ما هاجنى على كتابى هذا أمر ذكر لى عن رجال من أهل البادية ، ورجال أمروا حديثا ظاهر جفاؤهم ، قليل علمهم بأمر الله ، اغتروا فيه بالله غرة عظيمة ونسوا فيه بلاءه نسيانا عظيما ، وغيروا فيه نعمه تغييرا لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه ، وذكر لى أن رجالا من أولئك يتحاربون الى مصر والى اليمن ، يزعمون انهم ولاية على سواهم ، وسبحان الله وبحمده ما أبعدهم من شكر نعمة الله ، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصغر ، قاتلهم الله أية منزلة نزلوا ، ومن أى أمان خرجوا ، أو بأى أمر لصقوا ، ولكن قد عرفت أن الشقى بنيته يشقى ، وان النار لم تخلق باطلا ، أو لم يسمعوا قول الله فى كتابه ، : « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون »(١) . وقوله : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »(٢) . وقد ذكر لى مع ذلك أن رجالا يتداعون الى الحلف ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحلف وقال : « لا حلف فى الاسلام قال – وما كان من حلف فى الجاهلية فلم يزده الاسلام الا شدة ، فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الآثم الذى فيه معصية الله ومعصية رسوله ، وقد ترك الاسلام حين انخلع منه ، وأنا أحذر كل من سمع كتابى هذا

(١) سورة الحجرات الآية ١٠ .
(٢) سورة المائدة الآية ٤ .

ومن بلغه ، أن يتخذ غير الاسلام حصنا ، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة ، تحذيرا بعد تحذير ، وأذكرهم تذكيرا بعد تذكير ، وأشهد عليهم الذى هو آخذ بناصية كل دابة ، والذى هو أقرب الى كل عبد من حبل الوريد وانى لم آلكم بالذى كتبت به اليكم نصحا ، مع انى لو أعلم أحدا من الناس يحرك شيئا ليؤخذ له به أو ليدفع عنه أحرص – والله المستعان – على مذلته من كان ، : رجلا أو عشيرة ، أو قبيلة ، أو أكثر من ذلك ، فادع الى نصيحتى وما تقدمت اليكم به فانه هو الرشد ليس له خفاء ، ثم ليكون أهل البر وأهل الايمان عونا بألسنتهم ، وان كثيرا من الناس لا يعلمون . نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة فى ديننا وألفتنا وذات بيننا والسلام(١) » .

وكذلك رسالته التى وجهها الى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب ، وفيها يتجلى ايمانه القوى بأن النصر من عند الله ، وأن فضل هذه الأمة على من سواها وميزتها ، فى صلتها الصادقة بالله ، والاحتراس من المعاصى والتفوق فى الطاعة ، وهذا هو الفهم الاسلامى الذى كان طابع الصحابة وشعارهم ، ويظهر فى هذه الرسالة رفقه بالمسلمين وحنوه عليهم حنو الأمهات والآباء ، وكذلك اهتمامه بأهل الصلح وأهل الذمة والحرص على مصالحهم ، وهذا مثل الخليفة الراشد ، يقول رحمه الله :

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٣ وما بعدها .

« هذا ما عهد به عبد الله عمر أمير المؤمنين ، الى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب ، وحربه من استعرض من أهل الصلح ، آمره فى ذلك بتقوى الله على كل حال نزل به من أمر الله ، فان تقوى الله من أفضل العدة ، وأبلغ المكيدة وأقوى القوة ، وآمره أن لا يكون من شىء من عدوه أشد احتراسا منه لنفسه ومن معه من معاصى الله ، فان الذنوب أخوف عندى على الناس من مكيدة عدوهم ، وانما نعادى عدونا وننصر عليهم بمعصيتهم ، ولولا ذلك لم يكن لنا قوة بهم ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم فلو استوينا نحن وهم فى المعصية كانوا أفضل منا ، فى القوة والعدد ، فان لا ننصر عليهم بحقنا لا نغلبهم بقوتنا ، ولا تكونوا لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم ، ولا تكونوا بالقدرة لكم أشد تعاهدا منكم لذنوبكم ، واعلموا أن معكم من الله حفظة عليكم ، يعلمون ما تفعلون فى مسيركم ومنزلكم فاستحيوا منهم وأحسنوا صحابتهم ولا تؤذوهم بمعاصى الله وأنتم زعمتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا ان عدونا شر منا فلن يسلطوا علينا وان أذنبنا ، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم بذنوبهم فاسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم ٠

وآمره أن يرفق بمن معه فى سفرهم ، ولا يجشمهم مسيرا يتعبهم فيه ولا يقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يلقوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فانما يسيرون الى عدو مقيم جام الاهبة والكراع فان لا يرفقوا بأنفسهم وكراعهم فى

مسيرهم يكن لعدوهم فضل فى القوة عليهم باقامتهم فى جمام الأنفس والكراع والله المستعان ٠

وآمره أن يقيم ومن معه فى كل جمعة يوما وليلة يكون لهم راحة يجمعون فيها أنفسهم وكراعهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ٠

وآمره أن ينحى منزله عن قرى الصلح ، فلا يدخلها أحد من أصحابه لسوقهم وجماعتهم الا من يثق بدينه وأمانته على نفسه ، ولا يصيبوا منها ظلما ٠ ولا يتزودوا منها اثما ولا يؤذوا أحدا من أهلها بشىء الا الحق ، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم ففوا لهم ولا تستنصروا على أهل أرض الحرب بظلم أهل (أرض) الصلح ، فلعمرى لقد أعطيتم مما يحل منهم ما يغنيكم عنهم فلم أترك لكم خللا فى العدة ، ولا رقة فى القوة فتظاهرت واكتفت لكم العدد ، وانتخب لكم الجند وأغنيتك بأرض الشرك عن أرض الصلح ٠ وبسطت لك أفضل ما بسطت لغاز ، فلم أجعل لك علة فى التقوية ؟ وبالله الثقة ولا حول و لاقوة الا بالله ٠

وآمره أن تكون عيونه من العرب وممن يطمئن الى نصيحته وصدقه من أهل الأرض ، فان الكذوب لا ينفع خبره

وان صدق فى بعضه ، وان الغاش عين عليك وليس بعين لك، والسلام عليك(١) » ! ٠

تأثير اصلاحاته فى الدولة والمجتمع :

ان هذه الاصلاحات التى قام بها عمر بن عبد العزيز فى عهده ، وان هذه الخطوات الجريئة التى خطاها فى سبيل اصلاح نظام الحكم وتطبيق الشريعة على الحكومة ، كان يخشى أن تسبب الأزمات المالية والخسائر الفادحة ، وأن تقع الدولة فى مشاكل جديدة لا تجد لها حلا ، وهذه حجة الثائرين على الدين والمعارضين لتطبيق الأحكام الاسلامية على النظم والحكومات ، والدعاة الى فصل الدين عن السياسة فى كل زمان ، وكان عمر بن عبد العزيز مستعدا ليواجه هذه الأزمات فى شجاعة ، وقد كتب الى عامله الذى تخوف من سوء عاقبة فشو الاسلام فى أهل الذمة أنه يسره أن يحرث الأرض ويأكل من عمل يده اذا أسلم أهل الذمة كلهم فتنقطع الجزية وتعجز مالية الدولة من كفالته(٢) ٠

ولكن هذه الأزمات لم تقع ، وفجأ الناس أن الرفاهية قد عمت ومالية الدولة قد قويت ، واطمأن الناس فى كل

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٨٤ وما بعدها ٠
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ، طبع اوربا : ص ٦٣ ٠

رقعة من رقع هذه المملكة الواسعة ، حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها ، وأصبحت هذه مشكلة للأغنياء وأصحاب الأموال تطلب حلا سريعا ، قال يحيى بن سعيد : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من يأخذها منى ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين(١) » ٠

وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب : « انما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا ، فذلك ثلاثون شهرا ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع بماله ٠ قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس (٢) ٠

ولا تزال خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد ترديد الببغاء للكلمات والأصوات - ان الدولة التى تقوم على الأحكام الاسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والأزمات وعرضة للانهيار فى كل ساعة ، وأنها ليست الا حلما من الأحلام - ولا يزال هذا التاريخ يتحدى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ٦٩ ٠
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ١٢٨ ٠

هؤلاء ... ويقـول لهم « هـــاتوا برهـــانكم ان كنتم صادقين » .

ان هذه الفوائد المادية والرفاهية العـامة من بركات الحكومة الاسلامية الصحيحة ومن نتائجها الطبيعيـــة وهى فائدة لا يستهان بقيمتها ، ولكن الفائدة الكبرى التى جرت على يد عمر بن عبد العزيز والتى أحرزته منصب التجديد ، هى الاتجاه الجديد الذى اتجهته الأمة والمجتمع الاســلامى والتطور الذى وقع فى الأذواق والأخلاق والميول والرغبـات فى هذه المدة القصيرة . فقد حدث الطبرى فى تاريخه عن على قال : « كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضـياع وكان الناس يلتقون فى زمانه فانما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعـام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجوارى ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وراءك الليلة وكم تحفظ من القـرآن ومتى تختم ومتى ختمت وما تصوم من الشهر(١) » .

النقطة المركزية والأساسية فى حياة عمر بن عبد العزيز :

ان ميزة عمر بن عبد العزيز ليست فى الزهـــادة والتقشف ، فقد يشاركه فى ذلك بعض المتطوعين ورجـــال

(١) تاريخ الأمم والملوك لابى جعفر محمد بن جرير الطبرى : ج ٣ ، ص ٩٨ (حوادث سنة ٩٦) .

الحركات والثورات السـياسية – وان كنت أشك أن أحـدا بلغ مبلغه من العزوف عن الشهوات والزهد فى الحياة – ولكن ميزته الكبرى والسمة التى يتسم بها هو أن الدافع الى كل ذلك هو ايمانه القوى بالآخرة ، وخشية الله والشوق الى الجنة ، فلم يعش هذه الحياة الزاهدة الا خوفا لله وشوقا الى الجنة ، وايثارا للآخرة على الدنيا ، وايمانا بقوله تعـالى : « وما عند الله خير وأبقى » وايمانا بقوله : « وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » وتسليما لقول رسول الله : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » وهذا مفترق الطرق الذى ينفصل منه زهاد الاسلام عن السياسة ، وتلاميذ الرسول عن تلاميذ المدرسة السياسية والاقتصادية ، وليس لغير هذا الايمان القوى الذى امتاز به عمر بن عبد العزيز – أن يحفظ انسانا – فى مثل شباب عمر بن عبد العزيز وقوته وحريته وسلطانه – من اغراءات المادية القـاهرة ومن تســويلات الشيطان والنفس المغرية ، وتفرض عليه المحاسبة الدقيقـة للنفس ، والاستقامة على طريق الحق ، فقد رأينا فى قـادة الحركات السياسية الشعبية ، وفى رؤساء الدول التى تقوم على مبدأ الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية، كيف يتسللون الى أنواع الترف والبذخ ، وكيف يعيشون فى القصور عيش الملوك ، وكيف يبيحون لأنفسهم التمتع بالملذات والامتيازات. أما عمر بن عبد العزيز فاذا نصح فى ذلك ، وأشير عليــه بالتوسع فى المطعم والملبس والتمتع ببعض « حقوق » الخلفاء قرأ قول الله تعالى : « انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم » .

ولم يكن ذلك الا لعلو استعداده ومداركه ، ونتيجة الطموح الصادق الذى تتصف به النفس الكبيرة المؤمنة ، فانه لم يزل يتدرج فى المعالى حتى بلغ من ذلك الغاية التى ليست وراءها غاية فى هذه الحياة ، فطمحت نفسه الى غاية فوقها ، وتاقت الى نعيم لا يحول ، وملك لا يزول ، وقرة عين لا تنقطع . وكان شأنه فى ذلك شأن يوسف الصديق اذ قال : « رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الاحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » . يتجلى هذا فى كلمته التى قالها لمزاحم مولاه : « ان لى نفسا تواقة ، لم تتق الى منزلة الا تاقت الى ما هى أرفع منها ، حتى بلغت اليوم المنزلة التى ليس بعدها منزلة ، وانها اليوم قد تاقت الى الجنة(١) » .

وكان شديد الخوف لله ، سريع الدمعة ، غزيرها ، دخل عليه رجل وبين يديه كانون فيه نار ، فقال عظنى ! قال يا أمير المؤمنين ! ما ينفعك من دخل الجنة اذا دخلت أنت النار ؟ وما يضرك من دخل النار اذا دخلت أنت الجنة ؟ قال : فبكى عمر حتى أطفأ الكانون الذى بين يديه(٢) ، وقال يزيد بن حوشب : ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز! كأن النار لم تخلق الا لهما(٣) » .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ٦١ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٠٨ – ١٠٩ .
(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى : ج ٣ ص ١٥٦ .

وفاة عمر بن عبد العزيز :

ولكن هذه المدة التى كانت أشبه بفصل الربيع فى عالم الدين والأخلاق ، وفى تاريخ الانسانية ، وكانت فلتة من فلتات الدهر لم تطل ، فقد توفى عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ للهجرة بدير سمعان ، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر(١) . وتدل بعض القرائن على أنه سم ، لأنه بمقدار ما سعدت الامة وسعد به المجتمع الاسلامى ، شقى بنو أمية ، أسرته التى كانت تنظر الى الخلافة كطعمة أو ملك شخصى ، ووقف عمر بن عبد العزيز حاجزا بينهم وبين شهواتهم وتصرفاتهم ، فكان ربح الاسلام فيه على حساب الاسرة الحاكمة ، فلا غرابة اذا تخلصوا منه ، وحرموا الاسلام من هذه الثروة الغالية .

ان كل ما تحدثنا عنه من مآثر جليلة ، وأعمال خالدة ، واصلاحات واسعة تتجمل بها حياة طويلة ، وعمر عريض قد تم فى سنتين وخمسة أشهر ، فكان عمر بن عبد العزيز معجزة من معجزات الاسلام ، وآية من آيات الله العظام فى جلالة عمله ، وضخامة انتاجه ، وبعد أثره ، وكان معجزة ، لأن كل ذلك قد تم فى مدة قصيرة لم تعرف عن مصلح وعبقرى واداري . سنتان وبضعة أشهر يحقق فيهما ما لا تحققه

(١) ابن سعد ، ابن الأثير ، ابن الجوزى .

الحكومات والمنظمات فى عقود من السنين ، وتنير اتجاه أمة ومجتمع بأسره . ان هاتين السنتين لترجحان على الأعمار الطويلة ، وهذه الصفحات المعدودة المشرقة لترجح على مكتبة حافلة فى تاريخ الاصلاح والادارة والسياسة .

يسعدنى أن أحيى هذه الروح الطاهرة والشخصية الفريدة ، وأعلن ان هذا العصر ليس بأحوج الى شىء منه الى رجل من طراز عمر بن عبد العزيز ، وقد خلت القرون والأجيال ولم يظهر مثله ولا يزال التاريخ منشدا :

حلف الزمان ليأتين بمثله

حنثت يمينك ـ يا زمان ـ فكفر !

فهرس